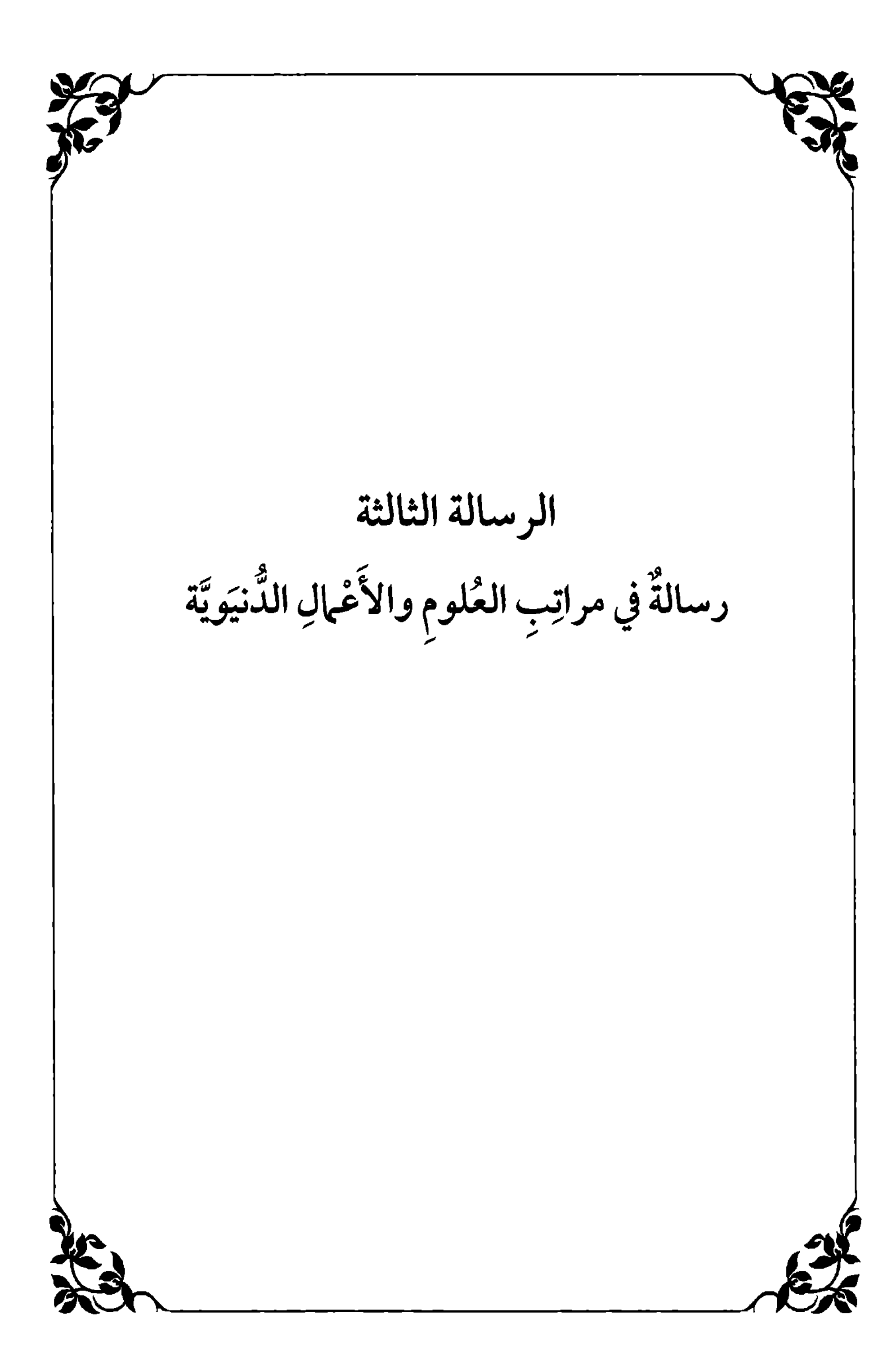


الرسالة الثالثة

رسالةٌ في مراتِبِ العُلومِ والأَعْمالِ الدُّنيَوِيَّة

رسالةٌ في مراتِبِ العُلومِ والأَعْمالِ الدُّنيَويَّة

وَصفُ المَخطوطَة:

هذه الرسالةُ مِن مُصنَّفاتِ الراغِبِ في «مَراتِبِ العُلوم» هي آخِرُ مخطوطةٍ مِن المجموعِ الذي وَقعْتُ عليه في أثناءِ زِيارَتي لإسْتانْبول عام ١٩٧٤م، وأنا أُعِدُّ لبَحثي عنه لنيلِ الدكتوراه.

تَتألَّفُ المَخطوطةُ مِن سَبعِ وَرَقاتٍ (لوحاتٍ)، في كُلِّ وَرقةٍ صَحيفَتانِ، في كلِّ صَحيفَةٍ سِتَّةَ عَشَرَ سِطْراً، وفي كلِّ سِطرٍ نَحو إِحدىٰ عشرة كلمة.

كُتِبَتِ المخطوطةُ بخَطٍّ فارسيٍّ (تعليق) بسيطٍ واضِح. ولقد كانَ لهذا المجموع، الذي هذه المخطوطةُ جزءٌ منه، نُسخةٌ وحيدَة، لَمْ أجدْ لها ثانيَـة.

وقد نشرتُها سابقاً في مجلّةِ آفاقِ الثقافةِ والتراث، التي تَصدُرُ عن مَركزِ جمعة الماجِدِ للثقافةِ والتراثِ ـ دُبي، العدد الثّامِن والثّلاثون، ربيع الآخر ١٤٢٣هـ ـ تموز ٢٠٠٢م.

أهَمِّيَـةُ الرّسالَة:

يبدو أنّ الرسالَة مِن إملاءِ الرّاغِبِ نَفسِه، وذلك لأنّه يَـنسِبُ لنَفسِه أسبابَ تَأليفِها حينَما يَقولُ في المقدِّمة: «قَصدي في هذه الرسالةِ....» وحينما يقولُ في أُخرياتِها: «وما قُصِدَ في ذلك ...» ونَحنُ نَجِدُ أنّ هذه المَخطوطَة مِنْ إملائِه علىٰ الصفحةِ الأولىٰ مِن المجموعِ الذي مِنه هذه الرّسالة. بلْ إنّ هذه الرسالةَ تُعدُّ في نَظري أقرَبَ تُراثِه، بلْ أغلَبَ تُراثِه الذي اطلعْتُ علىٰ قَدرٍ كبيرٍ مِنه في الدّلالة علىٰ حياتِه وشَخصيّته وثقافتِه.

فهو في مُصَنّفاتِه المخطوطةِ والمنْشورةِ قلَّما يَتحدَّثُ عَن نَفسِه إلىٰ حَدِّ النُّدرَة، وقلَّما يَعرِضُ لأحوالِه الثقافيةِ والاجتماعيّة، لكنَّه في هذه المخطوطةِ تحدَّثَ عن مَعركةٍ أدبيةٍ يَشُنُّها علىٰ بعضِ أتْباعِ أبي هاشِمِ الجبائي المعْتزلي المتوفَّىٰ سنة ٣٢١هـ مِن عُقودِ القَرنِ الرابع الهجرِي، الذي رجّحت أنّه عاشَ في بحثي عنه لنيلِ درجةِ الدكتوراه، وذلك لأنّهم نَفَّسوا عليهِ أن يفرّقَ بين دلالةِ كلمةِ «القُوّةِ» ودلالةِ كلمةِ «القُدرَةِ» وظنّوه ليسَ بقادرٍ علىٰ ذلك، فاتَّهَمهم بالجَهلِ وعدم القُدرةِ علىٰ الاسْتيعاب، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾.

كذلك نجدُ أنّ الراغبَ في هذه المخطوطةِ يفسحُ المجالَ للحديثِ عنِ اتجاهِه المذْهَبيِّ بينَ الفرقِ الإسلاميَّة، وهذا ما لم أجِدْه إلّا في مَخطوطةٍ أُخرىٰ له، هي «تَحقيقُ البيانِ» أو «رسالةٌ في الاعتقادِ» فهو لا يَنفي أنّه مِن أصحابِ عِلمِ الكَلام، حينَما يقول: «وأعْجبُ مِن ذلك تَخمينُه أو تَقديرُه (يعني أتباعَ أبي هاشِمِ الجبائي المعْتزلي) أن ليسَ وَراءَ الكَلامِ علمٌ يُبالي اللهُ به»، وعمّا يَدينُ به مِن دينٍ يقولُ عن توحيدِ الله وعَدلِه: «هما شِعاري ودِثاري بهما أتزيَّنُ في الدنيا والآخِرَة».

مَوضوعُ الرّسالَة:

تتعرضُ الرسالةُ أساساً لتَوضيحِ عُلومِ الدّيانةِ (العُلوم الدّينيّة)، التي يَتدرَّجُ بها النظرُ والتفكيرُ في الوُصولِ إلىٰ الإيمانِ بالله تعالىٰ، فتَبدأُ بالعَقلِ الغَريزيِّ الذي يَهَبُه اللهُ تعالىٰ كلَّ إنْسان، ويُسمّيه العِلمَ بغَيرِ تَوسُّط، ثُم ما يَحصُلُ برؤيةٍ ونَظرٍ في النواميسِ الطبيعيةِ والعَلاقاتِ السبَبيَّة، ثُمّ ما يُدرَكُ مِن جهة الوَحي والنُّبوّة، بالتّعاونِ مع العَقلِ مِن عُلومِ الفِقهِ والأخْلاقِ الإسْلاميَّة، وآخِرُها عُلومُ الحَقائِقِ والاطلاعُ علىٰ اليَقينِ بالله تعالىٰ.

وتُحدَّد، بإزاءِ ذلك، مَنازِلُ البُعدِ عن الله تعالىٰ التي تَتَّسمُ بمظاهِرِ الكَسلِ عن العِباداتِ وتَركِ العَملِ المُوصلِ إلىٰ الإيمان، والوقاحةِ في مُباشَرةِ المُنْكرات، والانهماكِ فيما يوقِعُ في الخَطيئةِ ويُبعدُ عن الله تعالىٰ.

أمّا الأعْمالُ الدُّنيويّةُ التّطبيقيّةُ التي يرىٰ صاحبُ المخطوطةِ أنها تَنبعُ مِن الفَضائلِ النبيلَةِ صُعوداً نَحوَ معرِفَةِ الله تعالىٰ، فهي تَبدأُ مِن تَركِ الفَحشاء، وهي دَرجةُ الخائِفين، ثُمّ تَزاولِ فعلِ الخَيراتِ مِن الفَرائضِ والنّوافِلِ، وهي دَرجةُ الراجين، ثُمّ تعاطي فِعل الخيرات، حَتّىٰ تُصبِحَ مستلذَّةً مريحةً لِلنفسِ والقَلْب، وأخيراً مُراعاةِ الله ومُراقبتِه أبداً.

وفي المَخطوطةِ إشاراتٌ ذكيّةٌ لتكوينِ المُجتمعِ الإسلامِيِّ المُتماسِك، وترتيبِ المكانِ والزمانِ مع مُستوياتِ التَّجمُّعِ السكّانيِّ بَينَ أهلِ الحيِّ والقريةِ والمدينةِ والصقعِ والعالَمِ الإسلاميِّ.

وفيها أيضاً ذَبٌّ عنِ الفَلسَفةِ الإسلاميةِ النابعةِ مِنَ القرآن والسنَّة، أمامَ أدعياءِ المعتزلةِ والمُستفيدينَ مِن عِلمِ الكَلام. ولا نَنْسىٰ أنّ فِكرَ الرّاغِبِ في هذه المخطوطةِ وغيرِهَا مُستَمدٌّ أصلاً من هذين المنبعَين لا مِن الفلسفاتِ المَنْقولةِ عن الإغريق.

* * *

رسالة في مراتب العلوم للراغب الاصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله حق حمده والصلوات على سيدنا محمد نبيه وعبده وآله
قال اشرف افعال المؤمنين فيما بينهم محبة بعضهم لبعض وتآلفهم
وذلك ان المحبة في الناس افضل من العدالة لان المحبة فيهم لا ينفك
من العدالة والعدالة قد ينفك من المحبة ولذلك قال بعض الحكماء
العدل في العالم خليفة المحبة يستعمل حيث لا توجد ولهذا لما قال
عمر رضي الله عنه لقاتل اخيه زيد بن الخطاب اني لا احبك بعد
قتلك اخي قال فعدلاً ان لم تكن محبة وعلى ذلك المثل المشهور الا
خطية فلا الية والمحبة احد ما شرف الله به الشريعة الالهية والملة الحنيفية
وجعلها نظاماً لها وامتن على النبي عليه السلام بها وعظم عنده النعمة المؤمنين
فقال لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت قلوبهم وقال تعالى
محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم وكفى
بذلك فضيلة ان قال فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه فجعل

اشرف الافعال محبة بعض من بعض صح

صورة الصفحة الأولى من مخطوطة «رسالة في مراتب العلوم»

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى وقد قال بعض الحكماء
لا شيء أبعد عن الحق من الكذب إذ هو ضده إلا أن المرائي أسوأ
حالاً من الكذاب لأنه يكذب في فعله وقوله جميعاً ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم المتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور ثم
المعجب أسوأ حالاً من هذين لأنه كذب في قوله وفعله واعتقاده
وذلك أن الكاذب يكذب بقوله والمرائي بقوله وفعله هما يعلمان
فعليهما ومتى وعظتهما فنبهتهما تعينك على قبوله والمعجب يكذب فيهما
وفي اعتقاده إذ لا يعلم بكذبه ومتى نبهته لم يتنبه ثم الكاذب والمرائي
ربما ينتفعا بفعلهما كالملاح خاف الغرق من مكان مخوف فبشر الركاب
بتجاوز المكان المخوف وأظهر لهم السرور لئلا يضطربوا خوف الغرق فيؤدي
ذلك بهم إلى العطب وكذا قد يرائي الرئيس ليقتدي به رعيته والمعجب
لا حظ له في العقوبات [illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من مخطوطة «رسالة في مراتب العلوم»

رِسالةٌ في مَراتِبِ العُلومِ
للرّاغِبِ الأصْفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نَستَعين، الحمدُ لله حقَّ الحَمْد، وصَلواتُه علىٰ سيِّدِنا محمّدٍ نَبيِّه وعبدِه وآلِه(١).

فإنّ أشرَفَ أفعالِ المؤمِنين، فيما بَينَهم، محَبَّةُ بَعضِهم لبعضٍ وتَأَلُّفُهم(٢). وذلك أنّ المحبَّةَ في الناسِ فضلٌ من العَدالَة(٣)؛ لأنّ المحبةَ فيهم لا تَنفَكُّ مِن العدالة، والعَدالَةُ قد تَنفَكُّ مِنَ المحبَّة(٤).

ولذلكَ قالَ بَعضُ المحقِّقين(٥): «العَدلُ في العالَمِ خَليفَةُ المحبَّةِ يُستعمَلُ حَيثُ لا تُوجد»(٦). ولهذا لما قالَ عُمرُ، رَضِيَ اللهُ عَنه، لِقاتِلِ أخيهِ زيدِ بنِ الخَطّاب: إنّي لا أُحبُّك بعد قتلِك أخي، قال: «فعَدْلاً، إن لم تكُن محبة»(٧).

---

(١) الآل: الأهل، عترة البيت، وهي معطوفة علىٰ كلمة محمد، والمصنف يكثر من قوله: «عليه السلام» بعد ذكره لعلي بن أبي طالب، وهو من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن أحب أقاربه إليه.

(٢) تألف مطاوِع ألّف، وألّف بين الناس: جمع بينهم، وهي معطوفة علىٰ «محبة».

(٣) أي: إنّ المحبة جزء وفرع علىٰ العدالة.

(٤) أي: إنّ كل محبة عدالة وليس كل عدالة محبة.

(٥) المحقق: الذي يحكم العلم ويتقنه.

(٦) فإن فقدت المحبة سد مسدها العدل. وقريب من هذا المعنىٰ بيت شعر البحتري:

إلّا يكـن ذنـب فعـدلك واسـع أو كان لي ذنب ففضـلك أوسـع

(٧) أي: إنه لم يحفل بمحبة الخليفة إن ضمن عدله، وفي رواية أنه قال لعمر: «أما الحب فلا يحفل به إلّا النساء»!

وعلىٰ ذلك المثلُ المشهور: «إلّا حَظيةَ فلا أليةَ»[١].

والمحبةُ أحَدُ ما شرّفَ اللهُ به الشريعةَ الإلهيةَ والملّةَ الحنيفية، وجَعلها نِظاماً لها، وامتنّ علىٰ النبيِّ ﷺ بها وعظّمَ عند ألفةِ المؤمنينَ فقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكَفىٰ بذلك فَضيلةً أنْ قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فجعل بينَه وبينَ صالحي عِباده محبّة، قدم محبّتَه لهم علىٰ محبَّتهم له.

وأهل البَلدِ الواحد، بل الملّةِ الواحدَة، إذا تحابّوا تَواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا تعاونوا عملوا، وإذا عملوا عمّروا، وإذا عمّروا أُمّروا[٢].

ولتربية المحبّةِ أمرَ بالاجتماع، ونهىٰ عن الافْتراق، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. وقال عليه السلام: «لو دُعيتُ إلىٰ كُراعٍ لأجبْت»[٣]،

---

(١) الحظية والمحظية: المرأة التي تفضل علىٰ غيرها في المحبة، والألية: اليمين أو التقصير. وهو مثل يضرب للنصح في مداراة الناس لإدراك بعض ما يحتاج إليه منهم. ويورده المصنف في كتاب (مجمع البلاغة) (١: ٣٦٩)، ويشرحه بقوله: أي: إن لم يحظَ فإنّه لم يقصّر.

(٢) يشير المصنف بهذا إلىٰ أصول المجتمع المتماسك العناصر: المحبة والتعاون والعمل المشترك في الإعمار وإدارة شؤون المجتمع. ولنلاحظ أنه يعدّ العنصر الديني أساساً لا غنىٰ عنه في المجتمع. فقد عدل عن البلد الواحد إلىٰ الملّة (الدين) الواحدة).

(٣) الكراع من البقر والغنم: مستدق الساق العاري من اللحم، ومن الإنسان ما دون الركبة إلىٰ الكعب. أخرجه البخاري (٩: ٢١٣) في النكاح، باب من أجاب إلىٰ كراع. وفي الهبة وهو بتمامه: «لو دعيت إلىٰ كراع أو ذراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت».

وذلك مِنه ﷺ؛ ليُقتدىٰ به في الأُلفَةِ لا حَثّاً علىٰ الشرَهِ في المطعَم[١]. وقال: «المُؤمِنُ الذي يُعاشِرُ النّاسَ ويصبِرُ علىٰ أذاهم»[٢]، وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسلام: «المُؤْمِنُ (لِلمُؤمِنِ) كالبُنيانِ يشُدُّ بعضُه بعضاً»[٣]، وقال: «المُؤمِنونَ كجسدٍ واحدٍ متىٰ اشْتكىٰ بَعضُه تداعىٰ سائرُه»[٤].

وللحَثِّ علىٰ الأُلفةِ شَرعَ الدينُ الإلهيُّ[٥] اجْتماعَ أهلِ المحلَّةِ[٦] في المساجدِ للصلواتِ الخَمس. واجتماعَ أهلِ البلدِ في جامعٍ واحدٍ كُـلَّ أُسبوعٍ، واجْتِماعَ أهلِ الصَّقعِ[٧] الواحِدِ مِن بَلدٍ وسَوادِه في كلِّ سَنةٍ في الأعْيادِ في جبّانة[٨]، وأهل البِلادِ

(١) والكراع والذراع: أجزاء صغيرة مما يهدي من الذبائح؛ لتدل برموزها لا بحجمها وكبرها علىٰ مبدأ الهدية.

(٢) ورد في الترمذي رقم ٢٥٠٩ في صفة القيامة، باب مخالطة الناس مع الصبر علىٰ أذاهم: بلفظ عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم».

(٣) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وأحمد عن أبي موسىٰ الأشعري، وكلمة: «للمؤمن» ساقطة من الأصل والزيادة من كتب الحديث.

(٤) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير بلفظ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ».

(٥) أي: الدين الذي شرعه الله تعالىٰ للناس، تمييزاً له عن العرف الذي هو اتفاق غير مكتوب بين الناس، وهو مرادف للعادات والتقاليد.

(٦) المحلّة: بفتح الحاء وكسرها: القوم النزول، وهيئة الحلول، وجماعة بيوت الناس. أو مئة بيت، والمجلس (القاموس المحيط: حلّ).

(٧) الصقع: الناحية جمعها أصقاع، وسواد المدينة ما حولها من القرىٰ والريف (القاموس: صقع)، وسواد العراق أطلق علىٰ ما بين البصرة والكوفة وما حولهما من القرىٰ (القاموس المحيط: جبن).

(٨) الجبّانة: ويقال لها الجبّان أيضاً هي الصحراء أو المقبرة. والمصنف يشير بذلك إلىٰ مصلّىٰ العيد حيث يجتمع أهل المنطقة الواحدة ليصلّوا في مصلّىٰ واحد في العراء، جرياً علىٰ سنّة رسول الله =

والقُرىٰ المُتَنائِيَةِ في العَمَلِ مَرّةً بمكةَ في الحجِّ والعُمرة(١)، ولم يَقتَصِرْ منهم علىٰ إقامةِ هذه العِبادات مُنفَرِدين، كُلُّ ذلك ليتَأَكَّد بالاجتماعِ أُنسُهم(٢).

ولستُ أعْني بالمحبَّةِ هنا إلّا التي تَقتَضيهِ الفَضيلَةُ دونَ التي تقتضيه اللّذّةُ أوِ المَنفَعة(٣) أو المتولِّدُ منها. فإنّ تلك مودّاتٌ فجائِيّةٌ ولوّامةٌ ومُضْمَحِلَّة(٤)، وإنّما التي تَبقىٰ هي محبةُ الفَضيلَة، وهي الثابتةُ في الدنيا والآخرَة، وإيّاهما عَنىٰ اللهُ تعالىٰ بقَولِه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومَحبَّتي للأُستاذِ(٥) مِن جِنسِ المَحبّـةِ للفضيلةِ التي تُوجِّهُها الشـريعةُ

= عليه الصلاة والسلام. ومن معانيها الـمنبت الكريم، أو الأرض المستوية في ارتفاع (القاموس المحيط: سود).

(١) تدلّ فكرة المصنف هذه علىٰ نظرٍ ثاقب في أصول الـمجتمع الإسلامي ـ وأعني ترتيـب الزمان والمكان مع مستوىٰ التجمع السكاني ـ الصلوات الخمس، وهي الحلقة الصغرىٰ، تجمع أهل الحيّ الصغير، وصلاة الجمعة، وهي الحلقة الأكبر، تجمع حياً أكبر، وصلاة العيدين، وهي أكبر، تجمع أهل البلد الواحد. أما الحلقة الكبرىٰ ـ الحج والعمرة ـ فتجمع المسلمين من أمصار الإسلام جميعاً.

(٢) من ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحض علىٰ صلاة الجماعة بقوله: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبعٍ وعشرين درجة» متفق عليه.

(٣) ورد في رسالة «آداب مخالطة الناس» ٤٨ للمصنّف قوله: «إنّ غرض الإنسان في كل ما يسعىٰ له ثلاث هي: الفضيلة والنفع واللذة، والمحبة تحصل للأغراض الثلاثة إذا كانت تتعلق بها». وهذه هي أنواع المحبة.

(٤) يعني: المحبة التي تهدف للذة أو للمنفعة.

(٥) أغلب ظنّي أنه يعني: الأستاذ الرئيس أحمد بن إبراهيم الضبّي، الذي خلف الصاحب بن عباد في الوزارة لبني بويه، وهو الذي رجّحنا أنه يرفع إليه أعماله ورسائله، راجع، «الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب»، ٣٥.

وتَقتضيها الديانَةُ(١)، فكان، أدامَ اللهُ توفيقَه، التَهَبَ واضْطرَمَ لقولٍ حُكِيَ له، علىٰ غَيرِ وَجهِه، عنّي، وأبلغَ بعضَ المجالسِ(٢) منّي كفاءَ ما تَقتضيه حُرّيته وتوجبه فَضيلته(٣)، فما كان إلّا أنْ كُشف(٤) فلم يوجدْ به نَجم(٥)، ولم يكُنْ له فرعٌ ولا أصل(٦).

وما كان بي في الكشف عن ذلك إلا أمران(٧):

أَحَدُهما: أن أعلِّمه أن لا يَعتمِدَ في الحِكاياتِ مَن لا يُقيّدُ كلامه(٨).

والثّاني: أنّه قيلَ لبعضِ الصالحين: فُلانٌ يسيءُ ظَنّه بك، فدعْهُ يَثْقُلْ به ميزانُك، فقال: لا أحب أن أُثقِلَ ميزاني بأوزارِ إخواني(٩).

---

(١) يعني: المحبة التي تهدف وتُنشِئ الفضيلة، فهو يحبه لا لجلب منفعة أو تحقيق لذة. والشريعة في اللغة الطريقة، وفي الاصطلاح ما شرعه الله لعباده من العقائد والأحكام ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾، والديانة والدين اسم لجميع ما يعبد به الله، أو هو ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقرّبه إلىٰ الله.

(٢) أي: الجلساء في المجالس، ويشيرُ المصنف بذلك إلىٰ واقعة معيّنة لم نستطع أن نقف عليها، ويبدو أن بعض جلساء (الأستاذ) قد سعوا بالراغب إلىٰ أستاذهم، فاحتدّ وغضب كثيراً لما سمع، فقال كلاماً لجلسائه يسوء الراغب، لذلك بنيري لتوضيح موقفه والدفاع عن نفسه.

(٣) أي: أنّ الأستاذ تحدث في المجالس عما حُكي له عن المصنف، وهو حرّ فيما يقول ولا يقول من عند نفسه.

(٤) أي: كشف الحديث الذي نقل للأستاذ عن المصنف.

(٥) النجم من النبات: ما لا ساق له، ويقال: ليس لهذا الأمر نجم، أي: أصل، يريد ليس بهذه النعيمة أساس.

(٦) فهذا الحديث المنقول عني غير صحيح لا في أصله ولا في تفصيلاته.

(٧) أي: ما حفزني إلىٰ الرد علىٰ هذه الفرية عاملان.

(٨) فقد سمع الأستاذ من نمّام لا يوثق بكلامه وصدّقه، وأريد ألّا يقع في مثلها.

(٩) أي: أنّ المصنف لا يرغب في أن تزداد حسناته بما يأخذ من حسنات الذين يسعون به.

ولكن طال تَعجُّبي مِن ذلك الشيخِ الفاضِلِ(١) حَرسَه الله، لأُمورٍ رأيتُها منه:

أ ـ طريقَةِ إنْكارِه عليَّ التَّفوُّهَ بلَفظِ القُوّةِ(٢) اعْتِلالاً بأنّ هذه اللفظةَ يَستَعمِلُها ذَوو الفَلسَفةِ وأن أقولَ بَدلَه القُدرَة(٣)، كأنه لم يَعلَمْ ما بَينَهما مِن الفَرقِ في تَعارُف عَوامِّ النّاس فَضلاً عن خَواصِّهم(٤).

---

(١) لم نصل بعد إلىٰ اسم هذا الشيخ، وأغلب الظن أنه من أتباع أبي هاشم الجبّائي الوارد في آخر المخطوطة.

(٢) القوة، كما وردت في كتاب «التعريفات» (الجرجاني): ٩٥، تمكّن الحيوان من الأفعال الشاقة ـ وقوىٰ النفس الإنسانية تسمىٰ قوىٰ عقلية ـ والقوىٰ العقلية باعتبار إدراكاتها للكليات تسمىٰ القوة النظرية ـ وباعتبارها استنباطها للصناعات الفكرية من أدلتها تسمىٰ القوة العملية.

(٣) القدرة، كما في «التعريفات»، ٩٢: هي الصفة التي يتمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة، وهي قسمان: الممكنة: وهي تمكين المأمور من أداء ما لزمه، والميسرة: وهي ما يوجب اليسر إلىٰ الأداء وبها يثبت الإمكان. وفي المعجم الوسيط: القدرة: الطاقة، وهي القوة علىٰ الشيء والتمكن منه. وفي «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف الله تعالىٰ فهي نفي العجز عنه.

(٤) يدلّ هذا الحديث من المصنّف لىٰ مبلغ ما كان يدور بين الناس في زمانه، من خاصة المثقفين ومن سواد الناس، وربما كانت نقطتا القوة والقدرة مما يستعمله الفلاسفة حقاً، فقد عرف أن أرسطو قسم الأشياء ما بين قادر بغيره وقادر بذاته، أو أنها تختلف ما بين القوة بالفعل أو القوة بالغير. وفي مفردات الراغب مادة (قوي): «القوة التي تستعمل لتهيؤ أكثر من يستعملها الفلاسفة، ويقولونها علىٰ وجهين: أحدهما: أن يقال لما كان موجوداً ولكن ليس يستعمل، فيقال: فلان كاتب بالقوة أي معه المعرفة بالكتابة، لكن ليس يستعمل. والثاني: يقال: فلان كاتب بالقوة وليس يعني به أنّ معه العلم بالكتابة. ولكن معناه يمكن أن يتعلم الكتابة. ولعل هذا ما يمكن تسميته كاتِباً بالقوة أو كاتباً بالفعل». ومن هنا يمكن إدراك ما بين القوة والقدرة من فرق. وللاطلاع علىٰ قدرة الراغب الفائقة في هذا الصدد، راجع كتابه «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة»: ٨١، ٨٢، ٧٧، ٧٨، ٧٩. وللتفريق اللغوي بين الطبع والسجية والخلق والعادة، راجع الصفحات: ٣٨، ٤٤، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٩٣.

ب ـ ثُمّ ما كانَ مِن اتِّهاماتِه وتَعريضاتِه بل تَصريحاتِه، تَنفّقاً مِنه علىٰ أشياعِه وأتباعِه، بالوَضْعِ عَنّي وَالغضِّ مني.

جـ ـ وازدِيادِه بعدَ المقالِ مَقالاً، لمّا رأىٰ مِنّي في مجاوبتِه جُملاً ثقلاً، ولَمْ أكُنْ أرىٰ بَأساً وضَيراً في احْتمالِ شَيخٍ كَريمٍ عَليَّ بها لا يَعودُ بمعابٍ في الحقيقةِ عليّ.

فقد قالَ سُفيانُ بنُ دينار[١]: «(ما نَالَني)[٢] مُذْ عَرفْتُهم ذمٌّ ولا سرَّني مِنهم جَحْدٌ».

وأعجَبُ مِن ذلك تَخمينُه أوْ تَقديرُه أنْ لَيسَ وَراءَ الكَلام[٣] عِلمٌ يُبالي اللهُ به[٤]، كما قيلَ: (لَيسَ وَراءَ عباdانَ قَرية) [٥]. وهَيهات هَيهاتَ! فإنّ وَراءَ هذا ضَياعاً وبِقاعاً ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧][٦]، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١]:

(١) سفيان بن دينار الكوفي، من أشهر من كان يُروىٰ عَنْهُ حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، روىٰ عنه البخاري والنسائي. توفي في حدود الستين ومئة، «الوافي بالوفيات» (١٥: ٢٨٣).

(٢) غير واضحة في الأصل، أي أنه في مكانٍ رفيع لا يحفل معه بذمهم أو حمدهم.

(٣) هذا يشهد بأن الراغب من علماء الكلام، ولكن ليس من المعتزلة منهم، ففي علماء الكلام من كان في صف أهل السنة والجماعة، مثل الفخر الرازي المتوفىٰ عام ٦٠٦هـ.

(٤) أي: علم ذِي بال يستطيع أن يكون ذا وزن وأثر في العمل علىٰ إرضاء الله وتثبيت دينه.

(٥) هذا مثلٌ مشهور أورده الراغب في: «تفصيل النشأتين»: ٦، وفي «محاضرات الأدباء»: ٤: ٣٦٩. أصله بيت شعر للخوارزمي:

إذا جاوزت كسوته إليـه فليس وراء عبادان قريـةً

وعبادان جزيرة أحاط بها شعبتا دجلة اللتان تصبان في شط العرب.

(٦) أي: إن بعده علوماً كثيرة ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها.

فـدع عنـك نَهْبـاً صـيحَ في حُجُراتِـه ولكنْ حديثاً ما حديثُ الرّواحل؟[١]

قَصدي في هذه الرسالةِ أنْ أُبيِّنَ للأُستاذ، أدامَ اللهُ تأْييدَه، مَراتِبَ الشريعَةِ وأعْمالَها بالقَولِ المُجمل[٢]، ليَتعلَّمَ مِنه أينَ يَبتدئُ مَن يَبْتَدِئُ وإلىٰ أين يَنتَهي، وهل الغايةُ مِنها صِناعةُ الكَلام، وإنْ قالَ قائلٌ أوْ رَواه مُطَّلعٌ أعْلىٰ مِنه، والمراتِبَ التي يَبلغُ بها الإنسانُ قاصِيَها في الفَضائِل فيقرُبُ مِن بارِئه[٣]، والمراتبَ التي يَبلغُ الإِنسانُ قاصِيَها في الرذائِلِ فيَبعدُ عنه تعالىٰ غايةَ البُعد[٤]، لِنسألِ اللهَ تعالىٰ تَسهيلَ سَبيلِنا بتَطهيرِ نُفوسِنا إلىٰ تَناوُلِ فائضِ تَوفيقِه برحْمَتِه.

مراتِبُ العُلوم[٥]:

أولاً: العُلومُ الدينيَّة:

أمّا عُلومُ الدِّيانةِ[٦] بالقَولِ المجمَلِ فأرْبعةٌ:

---

(١) البيت لامرئ القيس في ديوانه: ٩٤.

(٢) يبين المصنف أهدافه من هذه الرسالة: توضيح مراتب علوم الشريعة وما فيها من أعمال، ثم يبين الهدف التطبيقي من هذه التوضيحات والشروح النظرية، وهو كيف يقترب المرء المؤمن فيها من ربّه ومن رضاه، وكيف يكسب غير المؤمن غضب الله ببعده عنها. وهذه هي التي يبدأ بها فوراً بعد هذه المقدمة، ويسميها علوم الديانة ـ وقد نسميها العلوم الدينية نسبة إلىٰ الدين.

(٣) وهذه هي التي يأتي علىٰ ذكرها فيما بعد، ويسميها العلوم الدينية، وأسميناها الدنيوية نسبة إلىٰ الدنيا، ص٢٠٨، وأولها ترك الفحشاء، وبها يتم التقرب إلىٰ الله تعالىٰ.

(٤) وهذه هي عكس الأعمال المذكورة في النقطة السابقة، وبها يكون الابتعاد عن الله تعالىٰ، نعوذ بالله منها ومن متّبعيها، ويبدؤُها بقوله: «وكما أنّ للتقرب من الله ... إلخ»: ١٤.

(٥) العنوان غير مذكور في الأصل في ورقة العنوان، وأثبتناه هنا لضرورة التبويب، وهو أصلاً عنوان الرسالة.

(٦) لعله يريد بعلوم الديانة ما ينسب للدين. في كتاب «التعريفات»: ٨٢. التعريفات الآتية للعلوم =

الأول: عِلمٌ يَحصُلُ بغيرِ مُتَوسِّط[١]، وهو المسَمّىٰ عندَ قَومٍ[٢] بالعَقلِ الغَريزِي[٣]، وعندَ المُتَكَلِّمينَ[٤] بالعِلمِ الضروري[٥]، والنُّسّاكِ بالفِطرةِ[٦] المشارِ إليه بقَولِه تعالىٰ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠]. وبقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

= بشكل عام: «العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع». وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل ـ والأول أخص من الثاني. وقيل: «العلم هو إدراك الشيء علىٰ ما هو به». وقيل: «زوال الخفاء من العلوم، والجهل نقيضه». وقيل: «هو مستغن عن التعريف». وقيل: «العلم صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات». وقيل: «العلم وصول النفس إلىٰ معنىٰ الشيء». وقيل: «عبارة عن إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول». وقيل: «عبارة عن صفة ذات صفة». وفيه: ٨٢-٨٣ التقسيمات الآتية للعلم: العلم ينقسم إلىٰ قسمين: قديم وحديث فالعلم القديم هو العلم القائم بذاته تعالىٰ، ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد. والعلم المحدث ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: بديهي وضروري واستدلالي. فالبديهي ما لا يحتاج إلىٰ تقديم مقدمة، كالعلم بوجود نفسه، وأنّ الكل أعظم من الجزء. والضروري: ما لا يحتاج فيه إلىٰ تقديم مقدمة كالعلم الحاصل بالحواس الخمس. والاستدلالي: ما لا يحتاج إلىٰ تقديم مقدمة كالعلم بثبوت الصانع وحدوث الأعراض». «التعريفات»: ١٥٥. وهذا التقسيم يقترب من عرض المصنّف لعلوم القسم الأول.

(١) أي: واسطة أو ما يتوسط بين شيئين، فيصل بينهما.

(٢) لعلّه يريد بالقوم المشتغلين بالفقه واللغة من رجال السنة والجماعة ولعله يريد الجمهور.

(٣) أي: النشاط الفكري والنفسي والسلوك المعتمد علىٰ الفطرة والوراثة البيولوجية.

(٤) علم الكلام: علم باحث عن الأعراض الذاتية للموجود من حيث هو علىٰ قاعدة الإسلام، التعريفات: ٨٣.

(٥) العلم الضروري، كما جاء في التعريفات، ط بيروت: ٦٧، ما لا يحتاج فيه إلىٰ تقديم مقدمة. كالعلم الحاصل بالحواس الخمس.

(٦) الفطرة: الطبيعة السليمة لم تشب بعيب، والفطرة السليمة في اصطلاح الفلاسفة استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل.

الثّاني: ما يُحصِّلُه برُؤيـةٍ ونَظَر(١)، وهو مَعرفةُ حُدوثِ العَـناصِرِ(٢) بطريقِ القوانينِ(٣) وإثباتُ إنيّة الباري(٤) جلّ ثناؤه وإثباتُ وحدانيته.

والثّالث: يُدرَكُ مِن جهةِ النبوَّةِ مع الاستِعانةِ بالعَقل(٥)، وذلك فَرعان: اعتِقاديٌّ وعَملي. فالاعتِقادِيُّ ما غايَتُه اعتقادُ الحقِّ فيه دونَ الباطِل(٦)، وهو المُنبّأُ عنه بقَولِه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وما رُوِيَ عن النبي ﷺ، حين سألَه جبريلُ عليه السّلام، عن الإيمانِ فقال: «أنْ تُؤمنَ بالله ومَلائكتِه وكُتُبه ورُسُلِه والبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ»، فقال: «فإذا فعلتُ ذلك فأنا مؤمن؟ قال: نعم»(٧).

---

(١) أي: بعد التفكّر والتأمّل والتدبّر.

(٢) يريد المواد الأولية التي تتكوّن منها الأشياء المحسوسة، والعناصر عند القدماء أربعة هي: النار والهواء والماء والتراب.

(٣) القانون، كلّي منطبق علىٰ جميع جزئياته التي يتعرّف أحكامها منه، كقول النحاة: الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، ومعرفة حدوث العناصر بطريق القوانين: أي تكوّن الأشياء بنواميس الكون وقواعد الطبيعة التي يظهر فيها ربط النتيجة بالسبب. «التعريفات»: ٩١.

(٤) الإنيّة: هي تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية. «التعريفات»، ط بيروت، ١٧.

(٥) أي: الإيمان من مصدر الوحي، وهو يتفق مع العقل ولا يخالفه. والإيمان في اللغة: الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة (القاموس المحيط: أمن).

(٦) أي: ما يستقر في القلب أنّه هو الصواب لا غير، وهو العلم النظري.

(٧) قطعة من حديث هو بتمامه كما رواه مسلم في «صحيحه»، بشرح النووي ١: ١٥٧. في باب وصف جبريل للنبي الإيمـان والإسلام. عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، رَضِيَ الله عنهما، بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذا يوم، إذ طلع رجلٌ شديد بياض الثوب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ =

والعَمليُّ ما غايتُه أنْ يُعتقدَ فيعملَ بحَسبِهِ(١). وذلك ضَربان: ضَربٌ هو الفِقْهُ(٢) وضَربٌ عِلمُ الأخْلاق(٣) وهو الذي تُسَمِّيه الصوفيةُ(٤) النُّسُكَ والزُّهد، وذلك تدَرُّجُ النفسِ إلىٰ تَطهُّرِها، وتصفيةُ القُلوبِ مِن الأوساخِ، وإماتةُ الشّهواتِ، وقَمعُ الهَوىٰ(٥).

= عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتـؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتـحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمـان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ... الخ».

(١) ويعني: العلم الذي يترجم إلىٰ سلوك.

(٢) الفقه في اللغة: الفهم الدقيق والفطنة، وفي الاصطلاح: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية. «التعريفات»: ٩٠، وجاء في كتاب العلم من صحيح البخاري، الخبر الآتي: «حدثنا محمد بن سلام قال: ... عن أبي جحيفة قال: قلت لعليّ: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلّا كتاب الله أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر».

(٣) وعلم الأخلاق: علمٌ موضوعه أحكام قيمية تتعلّق بالأعمال التي توصف بالحسن والقبح.

(٤) التصوف والصوفية: طريقة سلوكية قوامها التقشّف والتحلّي بالفضائل، لتزكو النفس وتسمو الروح.

(٥) وهذا يتفق مع ما تقول به الـمراجع عن أهداف الصوفية: حاصل قول الصوفية أنّ الطريق إلىٰ معرفة الله تعالىٰ هو (التصفية والتجرّد من العلائق البدنية) «اعتقادات فرق الـمسلمين والـمشركين»: ١٤.

الرابع: عُلومُ الحقائِق[١]، ويُقالُ لها عُلوم الموهِبَة[٢] وهو الاطلاعُ علىٰ اليَقين.

وعِلمُ الموهبةِ لا يمكنُ إدراكُه إلا باستعمالِ العُلومِ الظاهرةِ[٣] والعِبادةِ الكَثيرة، وتطهير النفسِ مِن الأوساخِ والأدْناسِ. ومحالٌ أنْ يَطمَعَ في إدراكِه مَن لمْ يُنقِّ قَلبَه، ولم يُطهِّرْ نَفسَه. فالقلبُ كالوِعاء، وما لَمْ يُطَهَّر الوِعاءُ لَمْ يَحصُلْ فيه

---

(١) في كتاب «التعريفات»: ٢٩، التحقيق: إثبات المسألة بدليلها. وفيه: ٤٨: حقائق هي تعيّنات الذات ونسبها. وفيه أيضاً: ٤٨: حقيقة الشيء ما به الشيء هو هو، كالحيوان الناطق للإنسان، بخلاف مثل الضاحك والكاتب مما يمكن تصوّر الإنسان بدونه. وفيه: ٤٨: الحقيقة في الاصطلاح هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب واحترز به عن المجاز. وعلوم الحقائق التي يريدها المصنف هنا هي المعروفة عند الصوفية بحق اليقين، وهو عبارة عن فناء العبد في الحق، والبقاء به علماً وشهوداً، وحالاً لا علماً فقط. ويفصّل الشريف الجرجاني في هذا الأمر فيقول: «فعلم كل عاقل عن الموت هو علم اليقين فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين، فإذا ذاق الموت فهو حق اليقين. وقيل: علم اليقين ظاهر الشريعة وعلم اليقين الإخلاص فيها، وحق اليقين المشاهدة فيها». «التعريفات»، ط بيروت: ٦٧.

وفي «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: «الحقيقة تستعمل تارةً في الشيء الذي له ثبات ووجود» كقوله ﷺ لحارثة: «لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» أي ما الذي ينبئ عن كون ما تدّعيه حقاً، وفلان يحمي حقيقته، ولقوله حقيقة إذا لم يكن مترخّصاً ومستزيداً، ويستعمل ضده المتحوز والمتوسع والمتفسخ. وقيل: الدنيا باطل، والآخرة حقيقة، تنبيهاً علىٰ زوال هذه وبقاء تلك. وأمّا في تعريف الفقهاء والمتكلمين فهي اللفظ المستعمل فيما وضع له في أصل اللغة. والحق من الإبل ما استحق أن يحمل عليه، والأنثىٰ حقه والجمع حقاق، وأتت الناقة علىٰ حقّها؛ أي علىٰ الوقت الذي ضربت فيه من العام الماضي. راجع «الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب»: ٢٤٢.

(٢) الموهبة: الاستعداد الفطري لدىٰ المرء للبراعة في فن أو غيره، وهي مولّدة. وهي في اللغة: العطية والصحابة تقع حيث وقعت (القاموس المحيط: وهب).

(٣) في «التعريفات» ط بيروت: ٦١: ظاهر العلم عبارة عن أهل التحقيق عن أعيان الممكنات.

النورُ الإلهيّ، وهو الذي قالَ فيه تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. فإنْ أنكَرَ بعضُ الجدَليـينَ[١] بأنّا لَمْ نُدرِكْ ذلك ولا نَعرِفُه فهو غَيرُ مُبعدٍ في دَعْواه[٢].

(وهل ترىٰ الشمسَ أبصارُ الخفافيش)[٣]؟!

وإنْ أنكَرَ وجودَ ذلك رَأْساً لَزِمَه قولُ النبيِّ ﷺ وقَضىٰ عليه، وهو قَولُه عليهِ السلام: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ أورثه الله عِلْمَ ما لم يَعلم»[٤]، وما رُوِيَ عن أميرِ المُؤمِنينَ رَضِيَ اللهُ عَنه: (قالَتِ الحِكْمَةَ: مَن طَلَبني فلم يَقدِرْ عليّ فليعملْ أحْسنَ ما علِمَ ولْيترُكْ أسوَأَ ما عَلِم)[٥].

وقال عليهِ السلام[٦]، لما سُئِل: «هلْ عِندَكَ عِلْمٌ عنِ النّبيِّ ﷺ لَم يَقَعْ إلىٰ غَيرِكَ؟ فقال: لا، إلّا كِتابَ الله وباقِي صَحيفَتِه»[٧]، فرُبَّما يُؤتيهِ اللهُ مَن يَشاء، بل

(١) «التعريفات» ٤١: الجدل عند المنطقيين دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه. والجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. ولعل المصنّف يقصد بعض معاصريه من محبّي الجدل في الأمور غير المفيدة.

(٢) يريد أن هذا الجدل المعاصر له يتهمه أنه لم يصل في الرياضة الروحية إلىٰ مرحلة علم الحقائق.

(٣) شطر بيت من البحر البسيط أورده المؤلف أيضاً في «مجمع البلاغة»: ٦١.

(٤) الحديث في «حلية الأولياء»، قال عنه العجلوني في «كشف الخفاء»: موضوع.

(٥) أي: إنّ علىٰ من ابتغىٰ الحكمة أن يحسن الاختيار في بحثه عنها.

(٦) يريد عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولطالما كتب المصنف عليه السلام عن علي.

(٧) في كتاب العلم من صحيح البُخاري، باب كتابة العلم، الحديث ١١١، الخبر الآتي: حدثنا محمد بن سلام قال: «عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلّا كتاب الله أو فهمٌ أُعطيَهُ رَجلٌ مسلم، أو ما في هذه الصحيفة؟ قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يُقتَلُ مسلم بكافر».

بحُجَّـةٍ مِن ذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، فبيَّنَ أنّهم خوَّلوا زِيادَة الهُدَىٰ وإيتاءَ التَّقوىٰ بالاهْتِداء.

فمَن حَصلَ له العِلمُ المكْتسبُ مِن الكَلام والفِقْهِ ونَحوِهِما فهُم العُلَماءُ[١]، ومَن حَصَلَ لهم عِلمُ الأخْلاقِ وعَمِلوا به فهُم الحُكَماء[٢]، ومَنْ حَصلَ لهم عِلمُ المَوْهِبةِ فَهُمُ الكُبَراء[٣]. لذلك قالَ عليهِ السلام[٤]: «سائلِ العلماءَ وجالسِ الكُبراءَ وخالطِ الحكماء».

وإنّما قالَ عليهِ السلامُ ذلك، فإنّ مُساءَلَةَ العُلماءِ تَقِفُك علىٰ مَعرِفَةِ تَوحيدِ الله علىٰ سَبيلِ التحقيق[٥] وعلىٰ أحْكامِ الشريعَة، ومُجالسةُ الـحُكماءِ[٦] تَـقِفُكِ علىٰ الحِكمةِ والاطلاع علىٰ عُيوبِ النّفسِ ودِقاقِ الوَرع، ومُخالَطَةَ الكُبراءِ تُميتُ عنك كلَّ داءٍ وتُطلِعُك علىٰ مَلَكوتِ السماء[٧].

---

(١) وهم الذين أخذوا عن الوحي والنبوّة الجانب العملي من الشريعة، وفي «التعريفات» ط بيروت: ٦٧. «العلم الاكتسابي هو الذي يحصل بمباشرة الأسباب».

(٢) وهم الذين أخذوا عن الوحي والنبوّة الجانب العملي من الشريعة أيضاً، ولكنهم يمتازون عن العلماء بما يظهر عليهم من الأخلاق العملية بين الناس. وفي «التعريفات» ط بيروت: ٤١: «الحكماء هم الذين يكون قولهم وفعلهم موافقاً للسنة».

(٣) وهم الذين ذكر أنهم أهل الحقائق وأهل اليقين.

(٤) يريد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وينسب مثل هذا القول للقمان: «إذ قال لابنه: يا بني عليك بمجالس العلماء واستمع كلام الحكماء، فإنّ الله عز وجل يحيي القلب الميّت بنور الله، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر». «كنز العمال»، الحديث رقم ٢٨٨٨١، وقال: حديث سنده ضعيف.

(٥) أي: الضبط والتوثيق، فهي أدلّة نقلية عن طريق الوحي (النبوة).

(٦) لعلّ الحكماء هنا يريد بها: ما يترادف مع الفلاسفة.

(٧) فالكبراء هم أهل الحقائق الذين انتهت إليهم العلوم اليقينية.

وإلىٰ هذا شَوَّقنا تعالىٰ بِقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، حيثُ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فلولا أنّ هذا التذكُّرَ أمرٌ لا سَبيلَ إلىٰ الوُصولِ إليه بالهُوينَىٰ لم يُشْتَرطْ علينا أنْ نَتحلّىٰ[١] بهذِه الأعْمال، التي هي جِماعُ العِباداتِ ومَكارِمُ الأخْلاق. وهذه المعاني التي تَنطوي عليها هذه الآية في المعنىٰ بِقولِه تعالىٰ: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٤].

وهذا النوعُ مِن المعرِفةِ هو القَولُ الطيِّبُ الذي هُدِيَ إليه المؤمِنون، فقال تعالىٰ: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

وهو النـورُ الذي ذكره في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

وهو الكِتابةُ المذكورةُ في قولِه تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فهذه هي المنازِلُ الأرْبَعُ، ويترتَّبُ بَعضُها علىٰ بَعض، فيما رَكَّبَ اللهُ تعالىٰ فينا مِن المعارفِ الضـرورية[٢] يَتوصَّل إلىٰ معرفةِ المُكْتَسب[٣]، وبالمكْتسبِ يتوصَّلُ إلىٰ ما يأتينا مِن جِهةِ النبوَّة[٤]، وباستعمالِ ذلك والتدرُّبِ به والفَـزَعِ إلىٰ الله تعالىٰ نَرجو أمثالَ الحقائِق[٥].

---

(١) غير واضحة في الأصل.
(٢) القسم الأول من علوم الديانة ـ الدينية.
(٣) القسم الثاني من علوم الديانة ـ الدينية.
(٤) القسم الثالث من علوم الديانة ـ الدينية.
(٥) القسم الرابع من علوم الديانة ـ الدينية.

ثانياً: الأعمالُ الدنيويَّة:

وكما أنّ العُلومَ الدينيّةَ بالقولِ المُجملِ علىٰ أربعِ مَراتبَ يَترتبُ بعضُها علىٰ بعض، كذلك الأعمالُ الدنيويَّة(١).

فالأولُ: تَركُ الفَحشاءِ أو تَجنُّبُ الشَّرّ(٢)، فإنه ذَريعةٌ إلىٰ فِعْلِ الخَير كالبِناء، وقد يَكونُ أسٌّ بلا بناء، ولا يحصل بناءٌ بلا أُسّ(٣). ولذلك قيل: بتَجَنُّبِ الرذيلةِ نَتوصَّلُ إلىٰ اكتسابِ الفَضيلَة، وبهجْرانِ القَاذوراتِ(٤) نَقتَدِرُ علىٰ تَعاطي الخَيرات، ومَن فَعَلَ خَيراً فليتجنَّبْ كُلَّ ما خلَّفَه، وإلّا لم يَخرُجْ مِن كَونِه شَرّاً، وهذا دَرجةُ الخائِفينَ وأوَّلُ مرتبةِ المُتَّقين(٥).

---

(١) كان المصنّف قد تحدّث فيما سبق عن مراتب العلوم الدينية، نسبة إلىٰ الدين، أو كما قال الديانة، وهو هنا يتحدث عن مراتب الأعمال الدنيوية نسبة إلىٰ الدنيا في هذه الحياة الدنيا. وقد وردت في الأصل الدينية. لاحظ أن الأولىٰ علوم والثانية أعمال.

(٢) وهذا يذكر بقول الشافعي رحمه الله:

شكوت إلىٰ وكيع سوءَ حفظي ... فأرشدني إلىٰ ترك المعاصي
وأخبرني بأنّ العلم نورٌ ... ونورُ الله لا يُهدىٰ لعاصي

(٣) يقول الراغب في «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»: ١٥٩: «العبادة ضربان: علمٌ وعمل، وحقهما أن يتلازما: لأن العلم كالأس، والعمل كالبناء، وكما لم يغنِ أس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن أس، كذلك لا يغني علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم».

(٤) أي: الأفعال السيئة، شبهها بالمواد القذرة والأوساخ.

(٥) وهذا يذكّر بقول أحد الشعراء:

إنّا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

والثاني: فِعلُ الخَيراتِ مِن إقامةِ الفَرائضِ واتِّباعُه بمؤَكّداتِ النّوافلِ، وهو دَرجَةُ الرّاجين(١).

وثالِثُها: بتعاطي الخَيراتِ حتىٰ يصيرَ فعلُ الخيرِ للإنْسانِ مُستَلَذّاً لا متكلَّفاً ومستكْرَهاً، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «وجُعِلَتْ قُرّةُ عيني في الصلاة»(٢)، فسمّاها «قرّة العينِ» استطابَةً(٣) لها.

والرابعُ: أن يكونَ الإنسانُ تصرُّفُه الباطنُ فضلاً عنِ الظّاهرِ علىٰ مرضاةٍ مِن الحق، ويكونُ حافظاً لخطراتِه، ومراعياً لأفكارِه، مطّلعاً في جميعِ أحوالِه علىٰ ملكوتِ السّماواتِ والأرْض.

فهذه الحالةُ التي وصفَها حارثةُ بنُ مالكٍ(٤) لما سألَه النبيُّ ﷺ فقال: «كيف أنت يا حارثَة؟ فقال: أصبحت مُؤمناً حقاً، فقال: لكلِّ حقٍّ حَقيقَتُه، فما حقيقَةُ

---

(١) وهذه مرحلة العمل بإيجابية، أما السابقة له فكانت سلبية، واكتفت بترك فعل الشر.

(٢) جزء من حديث هو بتمامه مرويّ عن أنس بن مالك: «حُبّب إليّ من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». رواه أحمد بن حنبل في «مسنده»، والنسائي في «سننه»، والبيهقي في «السنن».

(٣) أي: استشعاراً لأثرها الطيب في النفس.

(٤) حارثة والحرث، هو الحارث بن مالك الأنصاري. والحديث في «الإصابة في تمييز الصحابة»، الحديث ١٤٧٨: «عن معمر عن صالح بن مسمارٍ أن النبي ﷺ قال: يا حارث بن مالك، كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً حقّاً، قال: إنّ لكل قولٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عواء أهل النار، فقال: مؤمن نوّر الله قلبه»، وقال الحافظ العراقي: رواه البزّار والطبراني عن طريق الحارث بن مالك، وهو ضعيف (انظر: إحياء علوم الدين، ٥ (١٤) ١٣٣).

إيمانِك؟ قال: عَرفتُ[١] نفسي في الدّنيا فأظْمأتُ نَهاري[٢] وأسْهرتُ لَيلي[٣]، وكأنِّي انْظُر إلىٰ عَرشِ ربِّي بارزاً، وكأني انْظُرُ إلىٰ أهلِ الجنّةِ في الجَنّةِ يتزاورونَ وإلىٰ أهلِ النّارِ في النّارِ يتعاوَرون».

فقال النّبيُّ ﷺ: «مؤمنٌ نوَّر اللهُ قلبَه بنورِ الإيمان، عرفْتَ فالزَم»[٤].

وعلىٰ ذلك نبّه عليه السّلام بقوله: «إن اللهَ يقولُ: ما تَقرَّبَ إليَّ عَبدٌ بمثلِ ما افترضتُ عليه، وإنّ العبدَ لا يَزالُ يتقَرَّبُ إليّ بالنّوافِلِ حتّىٰ أحبَّه، فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سَمعَه الذي يَسمعُ به، وبَصَره الذي يُبصِرُ به ويَدَه التي يَبْطِشُ بها»[٥].

فمنْ وَصلَ إلىٰ هذه المَنزلةِ فإنّه يُقالُ له مُريدٌ وخليلٌ وحَبيبٌ[٦] علىٰ حَسبِ مَراتِبهم.

وفي بَعضِ كُتبِ الحُكماءِ أنّ اللهَ تعالىٰ إذا أَحَبَّ عبداً تفقَّده كما يَتفقَّدُ الصديقُ صديقَه.

---

(١) أي: ازورّت ومالت وتركت.

(٢) أي: بالصيام.

(٣) أي: بالقيام، بارزاً، ظاهراً للعيان.

(٤) وهذا إقرار من الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه المعرفة الحقيقية للعبادة الحقّة وأثرها في المؤمن.

(٥) جزء من حديث رواه البخاري في «صحيحه»، والنووي في «الأربعين»، وفي «الأحاديث القدسية» وهو بتمامه: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من عادىٰ لي وليّاً آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّبُ إليّ بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه».

(٦) المريد: التابع لأستاذ في طريقة التعليم، وهي رتبة التبعية التامة لدىٰ الصوفية، ويقابلها الخليل في الصحبة التي منها الملازمة التام، ويقابلها الحبيب في التعلّق العاطفي بين اثنين.

ولا يُنْكَرَنَّ مثلَ هذا القول، فقد قال تعالىٰ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[١].

وقال لموسىٰ عليهِ السلام: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[٢].

ومَن لم يتَجاوزْ مَنزِلةَ الجَدلِ ولم يَأنسْ بالمعارِفِ العَقلِيَّةِ فليسَ له إلّا دِفاعٌ[٣] مِثلُ هذه الأخبارِ التي هي كما قال:

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضحىٰ نوراً، ومن فَلَقِ الصباح عموداً[٤]

والعِلْمُ والعَملُ يتَلازمانِ[٥] والإيمانَ، مَع كَونه مُنطوياً[٦] واسماً لهما، قلَّ ما ذكره اللهُ تعالىٰ وحده[٧] إلّا قَرَنَ بهِ ذِكْراً لِعَملٍ تَوكيداً نَحو قَولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) المائدة: ٥٤. وتتمتها ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وفي مفتتح الباب السادس من رسالة في أدب الاختلاط بالناس: ٦٨. قول أبو القاسم الحسين بن محمد: «اعلم أنه قد أجيز نسبة المحبة إلىٰ الله عز وجل، فقيل: محمد حبيب الله». وقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾. وقال: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

(٢) طه: ٤١. وقبلها: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۞ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾.

(٣) أي: دفع هذه الأقوال والأحوال ورفضها، وهو أمرٌ مستحيل؛ لأنه سيكون مثل إنكار نور الشمس وقت الضحىٰ أو فلق الصبح، كما يفهم من: وتجاوز الجدل إلىٰ مرحلة الاستئناس بالمعارف العقلية بقصد منه الانتقال من العمل السلبي إلىٰ العمل الإيجابي وفعل الخير بإرادة وإقبال. وفي «التعريفات» ط بيروت: ٣٣: «الجدل هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة».

(٤) البيت لأبي تمام في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي (١: ٤١٣). وكلمة نسب غير مثبتة في الأصل.

(٥) إذ لا يكفي علم بلا عمل، ولا يُغني سلب عن إيجاب.

(٦) أي: يتضمنها.

(٧) وردت عن الأصل (حده) والجمع بينهما علىٰ هذا النحو في الآيات ٥٨، ٩، ٧ من سورة «العنكبوت».

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[١]، وقال: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٢-٣]. وقال النبيُّ ﷺ: «كُلُّ شيءٍ هيِّنٌ إلّا العلمَ»[٢] ثُمّ قال: «ما العِلمُ إلّا ما يُعمَلُ به، والعَملُ إلّا ما كانَ خالِصاً»[٣]، ثُمّ تلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. وقال ﷺ: «العِلمُ علمان: علمٌ بالقلْب وعلمٌ باللِّسانِ فعلْمُ القلبِ وهو النافِعُ وعلمُ اللِّسانِ حُجَّةُ الله علىٰ خَلقِه»[٤]. وقد قيل: «العِلمُ ابتداءٌ والعَملُ تمامٌ»[٥]. والابتداءُ بلا تمامٍ ضائع، والتمامُ بلا ابْتِداءٍ مُحالٌ[٦]. ولو أنّ مَنْ عَلِم صَلاحاً ولم يعملْ صالحاً لكانَ مَن عَلِمَه شِرِّيراً وبعَملِه فاسِقاً[٧]، وهذا ما لا يَرتَضيه عَقل، وقد قالَ الشاعر:

لـو كنـتَ مُنتفعـاً بعلْمِـكَ مَـعْ مُعانَقَـةِ الكَبـائِرْ
فـاضرِبْ لشُـربِ السُّـمِّ ذا عِلْـمٍ بـأنّ السُّـمَّ ضـائِر[٨]

---

(١) قرن الله تعالىٰ في القرآن الكريم بين الإيمان وعمل الصالحات نحواً من ستين مرة.

(٢) لم أتوصل لحديث بهذا النص.

(٣) لم أتوصل لحديث بهذا النص.

(٤) الحديث في سنن الدارمي، مقدمة ٣٤ بلفظ: «العلم علمان: فعلمٌ في القلب فذاك العلم النافع وعلم في اللسان فذاك حجة الله علىٰ عباده»؛ أي أَنّ كلام المرء يوقعه في العقاب إذا كان فيه خطأ، ويعود عليه بالثواب في الإحسان، وأورده «كنز العمال» الحديث ٢٨٩٤٦.

(٥) وكل نزوع إلىٰ عمل يبدأ بموقف من العلم.

(٦) فلا بد لكل عملية كبيرة أو صغيرة من نقطة بداية.

(٧) وهذه صورة أخرىٰ من صور التلازم بين العلم والعمل الذي يتحدث عنه المصنف.

(٨) البيت من مجزوء الكامل ولم أصل إلىٰ قائله

والإنسانُ يرتفعُ إلىٰ درجةِ الاخْتِصاص[١] والقُربىٰ بأَرْبعِ منازل مِن التّقْوىٰ: بالخَوفِ والرجاءِ والإرادةِ والمحبَّة. فمتىٰ خافَ مَقامَ رَبِّه نَهىٰ النفسَ عَنِ الهَوىٰ[٢]، ومتىٰ رَجا خَشِي[٣]، ومتىٰ أرادَ صَبَرَ علىٰ إدْراكِ المُبْتَغىٰ[٤]، ومتىٰ أحبَّ تَرَكَ ما سِوىٰ الحقِّ[٥].

قال عليه السلام: «حُبّك الشيءَ يُعمي ويُصمّ»[٦]؟. وقال بَعضُ الحُكماء: معناه يُعمي الأولِياءَ عن مرأىٰ غيرِ البارِي عزَّ وعلا[٧]، كما يُعمِي الكُفّارَ والفُسّاقَ عن مُراعاةِ غيرِ الدنيا[٨].

وكما أنّ للتقرُّبِ مِن الله تعالىٰ بأربعِ مَنازلَ كذا أيضاً يَبعُدُ عنه بأرْبعِ مَنازِل: بالكسلِ وتركِ العَملِ والوَقاحةِ والانهماك.

---

(١) أي: التميّز في دنيا الخير والتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ بدرجات متفاوتة من العمل والإيمان.

(٢) هذا مأخوذ من قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الآيتان ٤٠، ٤١. من سورة النازعات، وهي المنزلة الأولىٰ من أعمال الدنيا ومن التقرب إلىٰ الله، وهي ترك المعاصي خوفاً من الله تعالىٰ، والجملة في الأصل (فمتىٰ به خاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ).

(٣) وهذه هي المنزلة الثانية التي سماها فعل الخيرات ودرجة الراجين.

(٤) وهذه الثالثة ـ وهي فعل الخير إقبالاً ذاتياً عليه لا بحفز من عوامل أخرىٰ ـ هي مرحلة الاختيار الإرادي.

(٥) وهي العليا في الاقتراب من الله، حينما لا يرىٰ المرء إلا الله تعالىٰ، فيما يزاول من حياة.

(٦) ورد هذا القول في الأمثال، كما نسب للرسول عليه الصلاة والسلام، في سنن أبي داود (أدب رقم ١١٦) ومسند أحمد بن حنبل (٥: ٦، ٦٤، ٤٩).

(٧) هذا في حالة كون المحبوب في جانب الشر.

(٨) هذا في حالة كون المحبوب في جانب الشر.

فمَتىٰ كَسِلَ عن مراعاةِ العِباداتِ(١) زاغَ قَلْبُه(٢) وعوقِبَ بالإعراض.

ومَتىٰ تَرك العَمَلَ(٣) رِينَ(٤) علىٰ قلْبِه، فَعوقِبَ بالحِجاب(٥)، ومَتىٰ تَوقَّحَ(٦) غُشِـيَ علىٰ قَلبِه(٧) فعوقِبَ بالإِبْعاد. ومتىٰ انهَمكَ(٨) طُبِعَ علىٰ قَلبِه(٩) فعوقِبَ بالطردِ مِن الجَنَّة(١٠)، نَعوذُ باللهِ مِن هذه المَنزِلَة، فنجدُ بها:

يَـــداهُ يـــدٌ تَطـــولُ إلىٰ المَخـــازي ... ومِنْ طلبِ العُلا خُلِقت قَصيرَة(١١)

وتستوقفه في بلوغ المَنزِلَة(١٢):

ذو هِمَّةٍ(١٣) نَـزَلَتْ عن أنْ يُقـالَ لَهـا ... كأنها قَدْ تَعالتْ عَنْ مَدىٰ الهِمَـم(١٤)

---

(١) أي: مزاولتها علىٰ الدوام.

(٢) أي: مال عن القصد وعن الطريق، وينطبق علىٰ هؤلاء قول الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ [النساء: ٦٣].

(٣) يريد العمل علىٰ إرضاء الله تعالىٰ.

(٤) ران الثوب ريناً: تطبّع وتدنّس. وران علىٰ قلبه الذنب: قسا قلبه لاقتراف الذنب بعد الذنب.

(٥) الحجاب: هو الساتر الذي يحول بين تارك العمل لله تعالىٰ وبين رضىٰ الله تعالىٰ.

(٦) أي: أظهر المجون والفسق علانية.

(٧) أي: غطىٰ عليه فلم يعد يفرّق بين الخير والشر.

(٨) أي: مضىٰ في العمل البعيد عن الله تعالىٰ.

(٩) أي: ختم علىٰ قلبه وربما لا يعود إلىٰ الخير.

(١٠) أي: الإخراج من دائرة رِضا الله، وهي العقوبة القصوىٰ.

(١١) البيت من البحر الوافر، ويقصد الشاعر: إحدىٰ يديه طويلة في الشر وقصيرة عن الخير.

(١٢) أي: تقف به وتمنعه من الوصول إلىٰ المنزلة المناسبة المطلوبة.

(١٣) خبر المبتدأ المحذوف تقديره هو؛ أي هو ذو همّة، ويقصد: هو في النهاية لم يستطع أن يرتقي في همته.

(١٤) أي: ارتقت إلىٰ مستوىٰ أعلىٰ من مستويات ذوي الهمم الأخرىٰ.

فهذه مَراتِبُ العُلومِ والأعْمالِ المُختصَّةِ بالفَضائلِ [الدنيوية][(١)]. فلْيَنظرْ كِبْرُ[(٢)] أصْحابِنا مِن المنْتَسِبينَ إلىٰ العدل[(٣)] في بَلَدِنا[(٤)]، فهم رِضاؤُهم عَدلٌ[(٥)]، أينَ هم مِن هذه المنازِلِ؟![(٦)].

[بينَ أهْلِ السنّةِ والجَماعَةِ وأدعِياءِ المُعتَزِلَة]

وما قَصدي في ذلك قَدْحاً في توحيدِ الله[(٧)] وعدْلِه[(٨)]، فهما شِعاري ودِثارِي وحلَّتي وردائي[(٩)]، بها أتَـزَيَّنُ في الدنيا والآخِرَة[(١٠)]، لكنّ الشأْنَ في بعضِ مَن

---

(١) في الأصل الدينية والتصويب منا.

(٢) الكِبر: العظمة والتجبر.

(٣) يعني: المعتزلة، فمن أسمائهم أهل العدل والتوحيد، وقوله (المنتسبين) تحتمل الانتقاد والغمز.

(٤) وقول الراغب (في بلدنا) من المواضع القليلة جداً التي يذكر شيئاً يتصل به شخصياً في تصانيفه المطبوعة والتي في طريقها للتحقيق والنشر.

(٥) أي: أنّ رضاءهم متوقع ومهم وضروري، وهو يستخدم كلمة العدل بمعنىٰ الرضا هنا مقابل المعنىٰ الاصطلاحي كما يريد المعتزلة في قوله المنتسبين إلىٰ العدل.

(٦) لعلّ المصنف يريد أن يغمز من قناة معاصريه من أتباع أبي هاشم الجبائي من المعتزلة، وقلّة مقدار ما كان يهمّهم أن يعملوا من أجل الاقتراب من الله تعالىٰ.

(٧) توحيد الله هو الإيمان به سبحانه وحده لا شريك له.

(٨) العدل: الإنصاف. والقيام علىٰ الحقوق والواجبات بالوجه الأمثـل. واختار العدل والتوحيد من صفات الله تعالىٰ؛ لأنّ الـمعتزلة كانوا يعرفون أحياناً بأهل العدل والتوحيد، «الملل والنحل» (١ : ٥٠).

(٩) أي: ما أدين به وأؤمن به علىٰ الدوام.

(١٠) أي: بهما أتعامل مع الناس في الدنيا وعليهما ألقىٰ الله تعالىٰ في الآخرة. يثبت هذا بوضوحٍ تام =

تَسمَّىٰ بِها تَسمّي الأَسْودُ بالكافورِ(١) والحَصىٰ بالجيدِ(٢)، فَرضِيَ مِن الوِلايةِ بالـخُطبَة(٣)، ومِن النكاحِ بالـخِطبَة(٤)، ما لَه يحتبلُ(٥) ويطيلُ تـكْفيرَ مُسلِم(٦) وتَفْسيقَ مُؤمِنٍ(٧) وادعاءَ إلحادٍ(٨) علىٰ مَن حَظِيَ بالعِلمِ المتْقَن(٩)، وتَجهيلَ من يُحلّىٰ بِعَملٍ صالِحٍ(١٠)، ونَهْيِ ناظرٍ في شَيءٍ مِن المعارِف، مما يلقِّحُ العقْلَ أوْ يُكسبُ الفَضْل.

= في مخطوطة رسالة في الاعتقاد: ٤. المحفوظة تحت رقم ٣٨٢. في مكتبة سعيد باشا بالسليمانية، استانبول.

(١) الكافور: شجر من الفصيلة الغارية، يتخذ منه مادة شفافة بلّورية الشكل يميل لونها إلىٰ البياض، من باب تسمية الشيء بضده وذلك تفاؤلاً، كما تسمىٰ الصحراء مفازة، والأعمىٰ بأبي بصير.

(٢) أي: تشبيه الحجارة بالأعناق النسائية الجميلة.

(٣) يقال: قنع من الإمارة بالسكّة (بسكّ اسمه علىٰ النقود) والخطبة (له علىٰ المنابر).

(٤) الخطبة بكسر الخاء، طلب امرأة للزواج، أي: رضي من الكثير بالقليل.

(٥) احتبل فلان فلاناً: أخذه بالأحبولة، المصيدة، أو نصبها له.

(٦) قال المعتزلة: إنّ مرتكبي الكبيرة كفّار مشركون، وهم من ذلك فسّاق. وقالوا: «الإيمان عقد وعمل، ومرتكب الكبيرة عقد بلا عمل». ينظر: «الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب»: ٢٣٩ نقلاً عن «نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام» (١: ٢٣٦).

(٧) تنظر الحاشية السابقة.

(٨) انظر لهذا كلّه (موقف الراغب الأصفهاني من المعتزلة)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ١٩٨٥، للباحث.

(٩) في الأصل العلم متقن، ينظر: «الراغب الأصفهاني في جهوده في اللغة والأدب»: ٢٢٩.

(١٠) ويعني الراغب بذلك نفسه ومن كان مثله من العلماء المتقنين العقلاء والفضلاء.

ولئنْ كانَ في كَونِ أبي هاشِم[١] الذي أحْدَثَ بالاً[٢] بالأمسِ[٣] في الألهِ[٤] علىٰ وَحدانيّته تعالىٰ مُقنع[٥]، لكان ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ

---

(١) أبو هاشم الجبّائي هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب (أبو علي) الجبّائي، أحد مشايخ المعتزلة، وزعيم الطبقة التاسعة منهم، عاش في بغداد، وتوفي عام ٣٢١هـ وأكثر معتزلة عصر ما بعد أبي هاشم عام ٣٣٠هـ وما بعدها علىٰ مذهبه. وأبو هاشم هذا هو ابن الجبائي المتوفىٰ عام ٣٠٣هـ. «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة»: ٣٠٤، و«الفرق بين الفرق»: ١٦٩.

(٢) البال: الحال والشأن، وأمر ذو بال: يحتفل له ويهتم به. أحدث بلبلة في الآراء بما يشيع من آراء المعتزلة وبما ذكر الراغب في مقدمة هذه الرسالة، من عدم التفريق بين القدرة والقوة، ويغيب عن الذين يميّزون بينها مثل الراغب. وللراغب موقف مفصّل من المعتزلة، راجعه في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، خريف ١٩٨٥. لكاتب هذه السطور، وراجع للحديث عن أتباع أبي هاشم، «الفرق بين الفرق»: ١٦٩. و«اعتقادات فرق المسلمين»: ٤٥.

(٣) يقصد المدة الزمنية التي عاشها حتىٰ توفي عام ٣٢١هـ وحمل تلاميذه من بعده أفكاره. وقول الراغب (بالأمس) ـ يعني ـ في أغلب ظنّي ـ أنه رأي الراغب ـ قد عاش أيامها ـ وهي منتصف القرن الرابع الهجري ـ وهذا دليل جديد يؤيّد رأيي من أنه عاش في القرن الرابع الهجري وأدرك المئة الخامسة، ولم يتوفّ عام ٥٠٢هـ كما تقول أغلب الكتب التي أوردت ذكره. راجع «الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب»: ٢٧-٤٨.

(٤) ألّ يَؤلَ ألا العدو: طعنه بالحربة. (الصحاح)؛ أي قال في الوحدانية لله تعالىٰ ما لا ينبغي أن يقال: «وهو أنّه قديم، عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته».

(٥) فاعل «كان» التامة بمعنىٰ تم لا بعلم وقدرة وحياة ـ وهذا هو التوحيد عندهم، المرجع السابق، ٢٣٠.

﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] بعضُ ذلك[١]، وفي النظرِ في أنفُسنا وقُواها، وعجيبٌ شَأنُها وما نَبَّه اللهُ تعالىٰ عليه بقَولِه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٢]، وفي تَدَبُّرِ الأرْضَ وما جعلَ فوقَها من الرواسي وباركَ فيها وقَدَّر فيها أقواتَها[٣] آيةٌ لِلمُعتَبِر، ونَبذُ ما في الكَونِ للمتَفكِّر، لكنْ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤]، نَعَم ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٥] وقالوا في أنفُسِهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وما ذلك مِنّي بقَدْحٍ[٦] في أبي هاشِم، فقَدْ طالَت إلىٰ المَساعي خُطاه، وحَسُنَ في الإسْلام مَسعاه، واشْتدَّ علىٰ المُلحِدَةِ مَوطِئُ قَدمِه، وبَيَّض وَجه أبْناءِ الإسلامِ مَوقِعُ كَلِمِه، ولكنْ لا يَجِبُ أَنْ يُنسىٰ عَبدُه، وقَولُ الله تعالىٰ:

---

(١) يريد: لئن تهيأت القناعة بوجود أبي هاشم الذي أحدث بلبلة بين الناس بفكره المعتزلي، فإنّ القناعة بآيات الله تعالىٰ المذكورة في (الآية: ١٦٤ من سورة البقرة) يجب أن تكون لدىٰ الناس من باب أولىٰ، وفيما تلا هذا الموضع في الرسالة من النظر في أنفسنا وفي الأرض قناعة أكبر أيضاً، وآية (إثبات) للمتأمل ولترك إثارة الشكوك حول الشرع.

(٢) الذاريات: ٢٠. وقبلها قوله تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

(٣) هذا كلامٌ مأخوذ من قوله تعالىٰ عن الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

(٤) الحشر: ١٩. يعني الذين يثيرون الشكوك في الفكر الإسلامي.

(٥) يونس: ٣٩. وهذا اتهام للمعتزلة بعدم فهم الشريعة علىٰ حقيقتها.

(٦) إنّ ما تقدم في أقوال المصنف لم يرد منه توجيه النقد لشخص أبي هاشم المعتزلي (ت ٣٢١هـ، ابن الجبائي ٣٠٣هـ) والدليل أنه يذكر فضله في الدفاع عن الإسلام ورد الملحدة من المعاصرين. ولكنه يستدرك في النّهاية، فيذكّر بفضل العلم والعلماء وترتيبهم درجات، كما يقع بين تلامذته وبينه، ويقع بينه وبين كبار العلماء.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١].

ومعذورٌ أن أُنكِرَ ذلك، فقد قال رجلٌ لأَفلاطون[٢]: «إنّي أرىٰ الإنسانَ[٣] ولا أرىٰ الإنسانيّة![٤] فقال: لأنّك أُوتيتَ ما تَرىٰ به الإِنْسان، ولم تؤتَ ما ترىٰ به الإنسانِيّة»![٥].

نَسألُ اللهَ أنْ يوفِّقنا لرُشدنا ويُبَصِّرنا فيه:

فمـن جهلـتْ نفسُـه قـدرَه رَأىٰ غيرُه منه مـا لا يَـرَىٰ[٦]

وقدْ قالَ بعضُ الحكماءِ: لا شيءَ أبعدُ عنِ الحقِّ مِن الكَذِب؛ إذ هو ضِدُّه، إلّا أن المُرائي[٧] أسْوأُ حالاً مِن الكَذّاب، لأنه يكذِبُ في فِعلِه وقَولِه جَميعاً. ولذلك قالَ النبيُّ ﷺ: «المتشبِّعُ بما لَيسَ عِندَه كلابِسِ ثَوْبَيْ زورٍ»[٨]، ثم المُعجَبُ[٩] أسْوأُ حالاً مِن هذين، لأنّهُ كاذِبٌ في قولِه وفعلِه واعتِقادِه، وذلك أنّ الكاذِبَ يكذِبُ

---

(١) يوسف: ٧٦، وقبله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

(٢) فيلسوف إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو صاحب نظرية المثل.

(٣) أي: الشخص، برؤية حسية بصرية بالعين المجردة.

(٤) الأفعال النبيلة التي تدقّ علىٰ الكثيرين، فلا يراها إلّا من يدركونها بقلوبهم وبصائرهم.

(٥) هو الفرق بين الحسّي والمعنوي.

(٦) البيت للمتنبي، في ديوانه، بشرح البرقوقي ١: ١٦٨.

(٧) المرائي: من راءىٰ رئاء ورياء: من يُرىٰ أنه متصف بالخير والصلاح علىٰ خلاف ما هو عليه.

(٨) ورد في «صحيح البخاري» ٩: ٢٧٨، بلفظ «المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور». والمتشبّع هو الذي يظهر الشبع وليس بشبعان. وقد ورد في الأصل المتشح أي اللابس.

(٩) أي: المعجب بنفسه.

بقوله، والمرائي بقَولِه وفعلِه، هما(١) يعلَمانِ فِعلَيْهما، ومتىٰ وَعظتَهما فسُكوتُهما(٢) يُعينُك علىٰ قَبولِهما، والمُعجَبُ(٣) كَذب فيهما وفي اعْتِقادِه؛ إذ لا يَعلَمُ بكَذِبه، ومتىٰ نبَّهْته لا يَنتَبِه. ثُمّ الكَاذِبُ والمرائي رُبّما يَفعَلانِ(٤) بفِعْلِهما كمَلّاحٍ خافَ مِنَ الغَرَقِ مِن مكانٍ مَخُوف، فبَشَّرَ الرُّكّابَ بتَجاوُزِ المكانِ المخوف، وأظهر بهم السرور؛ لئلّا يضطربوا خوفَ الغَرَق، فيؤدّي ذلك بهم إلىٰ العَطب(٥).

وكذا قد يرائي الرئيس لتقتَدي به رَعِيَّتُه(٦)، والمعجَبُ لاحظ له لِـنَفي الصوابِ(٧).

وَقىٰ اللهُ الأستـاذَ(٨)، أطالَ اللهُ بقاءه، في هذا الـمكانِ ورَعاه مِن عُيونِ

---

(١) يني الكاذب والمرائي.

(٢) غير واضحة في الأصل.

(٣) وقد يلاحظ المتأمل أنّ الراغب يشير بالمعجب إلىٰ أتباع بني هاشم، الذين أحدثوا بالاً بين الناس في عصره وبلاده.

(٤) في الأصل ينفعا.

(٥) أي: إنّه بشّرهم بعدم خطورة الموقف، وباجتيازه أول مرة، ولم يكن الأمر خطيراً، لكن في المرة الثانية صار الأمر أخطر، ولم يهم لنجدته أحد.

(٦) وذلك حينما يكون الهدف أن يكون الرئيس قدوة لمواطنيه.

(٧) أي: إذا أمكن أن يتكلّف الرئيس المراءاة ليقلّده شعبه، فإن العجب بنفسه لا يفيد علىٰ الإطلاق من مثل هذا الأمر، ولذا فلاحظ له من نفي الصواب والتظاهر بها سواه.

(٨) لم نعرف بعد اسم هذا الأستاذ، وإن كنّا نستطيع أن نشير إلىٰ العصر، وهو الربع الأخير من القرن الرابع، والربع الأول من القرن الخامس الهجري (٣٧٥-٤٢٥هـ)، فقد ثبت أنّ الراغب قد نسخ بخطه مصنّفه المشهور «مفردات ألفاظ القرآن» عام ٤٠٩هـ. راجع مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج: ٦١/ع١: ١٩١. ولا يخرج عن قولنا هذا ما قلنا في مفتتح هذه الرسالة من احتمال أن تكون هذه الرسالة مرفوعة لأحمد بن إبراهيم الضبي المتوفىٰ سنة ٣٩٥هـ.

الطوارِقِ[١] والحَدثان[٢]، وشَغلَه فيما يَكونُ هِبةً مُخلَّدةً لا عارِيَة[٣]، بِرَحْمَتِه، إنّه علىٰ ما يَشاءُ قَدير.

* * *

تمّ سَنة ١٢٤٣ في شهر شوال في يوم ١٤ كتبه الحاجُّ عبد الخالِقِ الزّكِيُّ البُلغارِيُّ غَفَرَ لَهُ العَزِيزُ البارِي؛ لأجْلِ رَئيسِ حُكَماءِ سُلطانِ الإسلامِ مُظهِرِ عِلمِ الطبِّ، ومُعينِ أهلِ الدينِ بالإنْعامِ. اللَّهُمَّ طوِّلْ عُمرَهُ وأبْقِ أثَرَهُ ما دامَتِ الدهورُ والأَيّام، واغفِرْ خَطاياهُ بحرمةِ حَبيبِكَ، وصَلِّ عليهِ وآلهِ وصَحبِه وسَائِرِ الأنبياءِ والأَوْلياء بعدد المخلوقين.

* * *

(١) المصائب.

(٢) الأحداث.

(٣) أي في الأمور الأساسية لا الفرعية.